

الكتاب المصري



نوفمبر ١٩٤٦

ذو الحجة ١٣٦٥

مجلة ٤ - عدد ١٤

السنة الثانية

ما وراء النهر

لست أدري أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنني أقطع بأنها لم تقع في مدينة القاهرة . فقد تتبع شاطئ النيل كله في هذه المدينة ، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر نخم ضخم شاهق في السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يظل ضروباً من النجم لا تعد ، وفنوناً من الزهر لا تحصى . وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر في يسر إلى النهر ، كما نأتما تسعى للقائه ، أو كما نأتما تيسر للشجر والزهر السعي للقائه .

لم أجد على شاطئ النيل في القاهرة هذه الربوة ولا شيئاً يشبهها ، ووجود هذه الربوة شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها هذه القصة . فما أظنك تخالفنى فى أن ما عيس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص ، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بمحدوده وأوصافه . وقد وقعت أحداث هذه القصة فى مكان ، ما فى ذلك شك ، بل وقعت فى هذا المكان الذى وصفته وصفاً موجزاً . وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها ، وهو الذى ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد علمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية . ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة ، لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز بما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها

وزهرها في سذاجة ويسر إلى النهر — أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة في دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب. فغرفات القصر وحجراته، وأفنية القصر وأبهاؤه، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية، وهذه السالم الكثيرة المختلفة، وهذا الشجر المتكاثف الملتف، وهذه النجوم المتقابلة المتدائرة، وهذا الزهر المنسق المنمق، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لونا أو ألوانا من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا في سيرتهم ما يلائمه، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله، وبهذا القول أو ذاك من أقواله، بحيث لم يكن بدّ من أن تحدث هذه الأحداث في هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأماكن، وإلا لبطلت قواعد الفن، ولفسد التاريخ الأدبي، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبي كل مذهب وسلكوا به كل سبيل، لا يخضعون لأصل من الأصول، ولا يتقيدون بقانون من القوانين التي وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن

وإذن فلا بد لهذه القصة من رتبة عظيمة الارتفاع والاتساع، ومن قصر شاهق، وشجر باسق، وزهر رائق، ونجم شائق، ونهر دافق يجري من تحت هذا كله في أناة حيناً وفي عنف حيناً آخر. فإذا فقد شيء من هذا ضاعت القصة. وما أظنك ترغب في أن تضعي، فأنت محتاج إليها لتنسق الوقت في القراءة، وأنا محتاج إليها لأنسق الوقت في الإيماء، والمجلة محتاجة إليها لتملأ عدداً من صفحاتها قليلاً أو كثيراً. كل شيء يضطرنى إلى أن أُملى، وكل شيء يضطر المجلة إلى أن تنشر، وكل شيء يضطرك إلى أن تقرأ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الرتبة وما فيها وما عليها لنمضى فيما يُسرّ له كل منا من الكتابة والنشر والقراءة. فلتكن هذه الرتبة ما دام لا بدّ لها ولنا من أن تكون. ولكنها لا تستطيع أن توجد في القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسطة مستوية ليس فيه نجاد ولا وهاد. فلو زعمنا أن الرتبة قائمة في هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة، ويضيع علينا القصة وما يذلنا في كتابتها ونشرها وقرائتها من الجهود.

وأكد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطئ النيل في مصر كلها . فليست أزعم أنى قد تتبع الشاطئ المصرى كله على النيل ، ولكنى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثير عنها الحديث فى كتب الحِطَطْ أولاً ، وفى الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جو مطر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شىء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الأنار . وقصبتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما تزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراهم الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها . ولكنى أستبعد ذلك ، لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى ، وأن تظهر وتختفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تخفى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يعضى فليس بأس من أن يعضى المكان كما يعضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن . وما أحب أن ينبج لى منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعل أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتصل بالأخلاق .

فأهل مصر كلهم أخيار أبرار ، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبعضون شيئاً كما يبعضون الجور ، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن

مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد : يناون عن السيئات أشد ما يكون النأي ، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافي ، وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ؛ فلست ترى بينهم قوياً يستدل ضعيفاً ، ولا غنياً يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بأس ، ولا سعيداً يستخف بشقى . ولست ترى بينهم متعجلاً للنفعة ، ولا مؤجلاً لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكفاة في سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهاك على الذات لا يصطنع في سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى في الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهم بشيء من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلاً أو كثيراً ، وإنما هم قوم فُطِروا على البر والاحسان ، ورُكِبَتْ في طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، واثلت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تناذى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئ منه النفوس ، حياتهم الأولى في هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين في الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفي هذه القصة ، كما سترى ، شيء من ظلم وجور ، وشيء من استطالة واستعلاء ، وشيء من الاستئثار بالذات في غير تخرج ، والإقدام على الآثام في غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة في مصر ؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافسة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين في عصورهم المختلفة وفي عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يمضون في الخير كلما تقدم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة في السماء إلا آماذ قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فانه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تُقَدَّرْ للناس في حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكها لا يوجد في أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون في جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسي : أين وقعت أحداث هذه القصة ؟ والحق أن الجواب على هذا السؤال ليس شاقاً ولا عسيراً ؛ فإنا أكثر البلاد التي ترتفع فيها الرابي على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الرابي ! وإذا لم تكذبني الذاكرة فإن شاعراً من أصحاب الموشحات قد صور لنا ربي كثيرة في أسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلجل تيجانها بالجلي ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلتقي عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهي من فضة حين يمتع النهار ، وهي من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دللنا على مكان هذه الربوة الرائعة التي يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقل إذن إنها في أسبانيا . وأنت تعرف أن أسبانيا هي البلد الذي يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التي ترتفع في السماء وتتسع في الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتي تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتي تندك وتنهار وتصبح أطلالاً بالية حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشدها عليها هذا الشعر الذي أنشده النابغة على طلل القديم :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد

ربوتنا إذن في أسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت في سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير ، تستطيع أن تلمس لها اسمين هذه الدرر الكثيرة التي يأتلف منها كتاب العقيد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسي العظيم .

ولكني لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغي لها أن تصور . فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشيء من الأشياء إلا إذا وصلت به ملحقاته التي تكمله وتعطيه صورته النهائية ، إن أتيح لشيء من الأشياء في هذه الحياة أن يظهر بصورته النهائية في يوم من الأيام . ولهذا الربوة ملحق لا يمكن إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالا خطيراً . فالجمال لا يستقيم إلا إذا جاوره القبح ، والنعيم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم . وما ينبغي أن تحتج على بنعيم الجنة وجماها ؛ فنعيم الجنة وجماها لا يستقيمان إلا إذا كان بازاها قبح جهنم ، وما يَصْلَى الحاطئون فيها من نار الجحيم .

لا بد إذن من أن أتم تصوير الربوة بشيء من الحديث عن هذا الملحق الذي لا يستقيم أمرها بدونه . وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما يلي الربوة ، وهي بعيدة الأرجاء ، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات القبح ، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع في الجو إلا قليلا ، لم تتخذ من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة ، وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض ، فاثقلت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحوراً تتخذ في باطن الأرض ، ولكن أهلها لم يحدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكنهم من احتفار الجحور في الأرض ، فأثروا أيسر الأمرين واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ . وقد قامت هذه القرية المائسة ، في هذا السهل المنبسط ، على شاطئ النهر الجليل ، وإلى جانب الربوة الرائعة ، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً ، وليشهد النهار المشرق والليل المظلم ، وليسجل التاريخ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها . أن الحياة مزاج من الخير والشر ، ومن النعيم والبؤس ، ومن الجمال والقبح ، ومن السعادة والشقاء وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء صل من أصول الوجود . فلولو الفقر ما كان الغنى ، ولولو البؤس ما كان النعيم ، ولولا الانخفاض ما كان الارتفاع ، ولولا الضيق ما كانت السعة .

ولست في حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال ، وما تمتاز به القرية من قبح . فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من حسن الرعاية للقراء أن أستأثر وحدي بهذا الوصف ؛ فأنا لم أستأثر بالخيال من دون القراء ، بل أنا قد أكون أقل الناس حظاً من الخيال وقدرة

على الوصف وبراعة في الأداء . ولم يخلق الله أديباً يستطيع أن يستأثر وحده بوصف ما يعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائماً بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التي يعرضها الأدباء تقع في نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشيء الذي ليس فيه شك هو أن القراء يشاركون في الخلق والإنشاء ، ويسبقون من ذات أنفسهم على ما يجلو لهم الكتاب من صور ألواناً لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تخطر لهم على بال . فهذه الربوة التي تحدث عنها ، وهذه القرية التي أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقي ولا تتشابه إلا في القليل . فالإنتاج الأدبي إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب في حقيقة الأمر إلا رائداً يمهّد الطريق . وما ينبغي للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التي تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذي أريد أن أصل إليه هو أنني أعتمد على القراء في أن يُعْمِل كل منهم خياله ما وجد إلى أعماله سبيلاً ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القرية قيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتمل القراءة السلبية ، وإنما هي تريد ، بل هي لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملاً ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن إرادة وعمد ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف في الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ؛ فكتبتنا قد عودوا القراء أن يهبتوا لهم الأدب كما يهبت لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرأوا ويسبقوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام في مواعيد موقوتة ليضع ويسخن .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطهي الأدبي ؛ لأنني أكبر نفسي وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأنني أكبر القراء ، وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقي إليهم الكلام فيسمعون ثم يسبقون . لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشئ بيني وبين القراء نوعاً من

الرمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ، ونمضى فيها معا ، وننتهى منها معا ، نتفق أحياناً ونختلف أحياناً أخرى ، ويشجر بيننا الخصام من حين إلى حين وقد كدنا نصل إلى أول القصة إن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد . فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتتابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك وهو عندى كذلك ، فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث . وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ في عرض الحوادث إلا شئ واحد ، وهو أن نتبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرفة على النهر . وهذه الصلة قريبة كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته في قصة الكاتب المعروف كفكا Kafka لأنى لا أصطنع في حديثي رمزاً ولا إيماءً ، وإنما أصطنع الصراحة التى تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرأوا قصة القصر لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوى ، وأن قريته إنما هى رمز للعالم السفلى ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتى أنا فهى ربوة من هذه الربى التى يراها الناس فى كل يوم ويقرون عنها فى كل كتاب من كتب الأدب ، وليس أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسى القديم . وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التى يشهدها الناس حين يصبحون وحين يمسون ، قدبنى من المادة التى تبني منها القصور ، وأثت بالآثاث الذى تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعود الناس أن يترفوا فى هذه الحياة التى نحيهاها ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه . فن أيسر الأشياء أن يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه فى ذلك إلا أن يمضى أمامه حتى يقرب من شاطئ النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فيرى أمامه طريقين إحداها ممهدة تمهيداً حسناً كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ، والآخرى ممهدة تمهيداً مقارباً ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من الأخرى ، وهى الطريق التى يسلكها الراجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى هذا القصر على قمة الربوة سالكا الطريق

الأولى إن أراد التيسير على نفسه بالسعى الهين والرقى السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلتقى في طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة والغادات الحسان . وسالكا إن شاء الطريق الأخرى إذا لم يشفق من التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ القصر في أقصر وقت ممكن وفي غير تلكثرة أو إبطاء . هذه هي الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهي كما ترى قريبة ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسراً ، هي صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغي أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون في القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ؛ فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة في شيء ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلاً ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلاً عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التي ألحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذي تعرفه والذي تراه في كل مكان يقوم فيه قصر نخم وتنسبط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون في هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . جزء عظيم من السهل المنبسط في أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يساقط منها هنا وهناك وعلى ما يتفضل به عليهم سادتهم من الفتات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل في أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم ، وليس لهم أمل في أن يستقلوا بملك أنفسهم . هم أحرار في ظاهر الأمر يذهبون ويحيثون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق في حقيقة الأمر لأنهم لا يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يحيثون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يطمعون ما يريد لهم أن يطمعوا لا ما يريدون هم أن يطمعوا . ولعلمهم لا يريدون أن يطمعوا إلا ما يسر لهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير ما يسر لهم ، ولا يستطيعون أن يطمعوا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون في أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار

كالعبيد، وعبيد كالأحرار، ليسوا راضين ولا ساخطين؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم في القصر. ويجب أن نعرف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد، يؤثرون أنفسهم بكل شيء، ولا ينزلون لغيرهم عن شيء؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين.

وقد آن للحوادث أن تحدث، وللقصّة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل. وأول ما نشهده من حوادث القصّة منظر هذا الشاعر الذي نيّف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر، وهو لا يعيش إلا متوكئاً على عصا يسرف في الانحناء عليها إذا رآه الناس، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قدمه، ونظر إلى ما حوله معجباً تباهاً. وقد تعود صاحب القصر الذي سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنيّاً يعيش على ثلاث، كما كان يقول أبو الهول في سؤاله لأوديب فكان كل ما رآه أشد متضحاً ساخراً قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذي يقيم فيه عن يمين القصر، وسعى منحدرّاً في بطن وتهمل يريد أن يبلغ المجلس الذي تعود أن يلتقي فيه صاحب القصر في جوسق جميل على شاطئ النهر، ولكنه يلتقي في طريقه شيخاً لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستاني عثمان الذي يقول له في صوته المتهاك المحطم: « في المكتب، يا سيدي في المكتب ! إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة، ولم يقف عند أزهاره التي تعود أن يطيل الوقوف عندها ». قال الشاعر الشيخ الشاب: « عمّ صباحاً يا عثمان، في المكتب ! ماذا سيصنع سيدك في المكتب أيمن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتماثل الشمس وتزيّن الأرض ويتهدى النهر على هذا النحو ! دعه في المكتب ؟ يا عثمان ولا تؤذنه بمكاني إلا أن يسألك، ولكن أرسل إلى القهوة، أرسل إلى قديمي لا قديماً واحداً، وقف على إبراهيم حتى يتقنها، فأنت تعرف القهوة التي أحب ». قال عثمان: « طاعة يا سيدي ! ولكني

رأيت مولاي عابسا هذا الصباح كما لم أره قط . قال الشاعر : « عابسا ! عابسا !
لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمة ، ويحبس نفسه وكل شيء يدعوه
إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوباً عبوساً ، وأرسل إلى قهوتي ولا تنبئه
بحضري إلا أن يسألك . »

ثم مضى أمامه منحنيّاً على عصاه مستأنياً متمهلاً حتى بلغ الجوسق فجلس
إلى المائدة ونشر أمامه أوراقاً وأخذ بيده قلماً وجعل يطيل النظر إلى النهر
كأنما كان يستمليه ثم يكتب متباطئاً على ما بين يديه من الأوراق .

طه حسين

[يتبع]